المحاضرة رقم 02: الثقافة، مفهومها وخصائصها ووظائفها

تمهيد

تُعدّ الثقافة من أكثر المفاهيم تداولًا وإشكالًا في العلوم الاجتماعية والإنسانية، نظراً لتعدّد زوايا النظر إليها واختلاف الحقول المعرفية التي تناولتها. فقد شغلت الثقافة حيّزًا مركزيًا في التحليل السوسيولوجي باعتبارها الإطار الرمزي والقيمي الذي تنتظم داخله أنماط السلوك والتفكير والعلاقات الاجتماعية. ولا يمكن فهم المجتمع أو تفسير الظواهر الاجتماعية بمعزل عن بعدها الثقافي، لأن الثقافة تمثّل البنية العميقة التي تمنح الأفعال الاجتماعية معناها ودلالتها. يهدف هذا البحث إلى تناول مفهوم الثقافة من منظور سوسيولوجي، وتتبع تطوره التاريخي، وبيان علاقة الثقافة بالمجتمع، ثم الوقوف عند خصائص الثقافة ووظائفها الأساسية.

أولاً: مفهوم الثقافة في السوسيولوجيا

1. تعريف الثقافة لغةً واصطلاحًا

لغةً، تعود كلمة الثقافة إلى الجذر العربي «ثَقِفَ» الذي يدل على الفطنة والذكاء والتهذيب والتقويم. ويقال: ثقف الشيء أي قوّمه وعدّله وهذّبه. أما في الاصطلاح السوسيولوجي، فقد تجاوز مفهوم الثقافة هذا المعنى الفردي ليشمل مجموع الأنماط الفكرية والرمزية والمادية التي تميّز مجتمعًا من المجتمعات.

يُعرّف **إدوارد تايلور** الثقافة بأنها **«ذلك الكلّ المركّب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات، وكلّ القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع»**. ويُعدّ هذا التعريف من أكثر التعاريف شمولًا، إذ ينظر إلى الثقافة باعتبارها نسقًا متكاملاً ومكتسبًا اجتماعيًا.

أما في السوسيولوجيا المعاصرة، فتُعرّف الثقافة على أنها منظومة من القيم والمعايير والرموز والتمثّلات التي تشكّل إطارًا مرجعيًا للفعل الاجتماعي، وتوجّه سلوك الأفراد وتصوراتهم داخل المجتمع.

ويرى **مالك بن نبي** أن الثقافة تشتمل على فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع في الوقت ذاته، ولذلك فإنه يقول: "فالثقافة إذن تعرف عمليا على أنها: مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتشربها الفرد منذ ولادته باعتبارها رأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، ولذل فإن الثقافة وفق هذا المنظور هي المحيط الذي تتشكل فيه طباع الفرد وشخصيته"، فهو يؤكد على أن الثقافة تعد قضية الإنسان والمجتمع في نفس الوقت، وهي دستور تتطلبه الحياة العامة بمختلف تنوعاتها، وشبهها بأنها الدم الذي يتخلل شرايين المجتمع الذي وجدت فيه بداية، والثقافة تلعب دور الموجه الحضاري بالنسبة لكل الشعوب منذ فجر التاريخ، وعبرها يسجل المجتمع حضوره ويثبت ذاته.

2. الثقافة بوصفها نسقًا اجتماعيًا

تنظر السوسيولوجيا إلى الثقافة بوصفها نسقًا اجتماعيًا يتفاعل مع باقي الأنساق كالبنية الاقتصادية والسياسية والدينية. فهي ليست مجرد أفكار مجردة، بل منظومة حية تتجسد في الممارسات اليومية، واللغة، والطقوس، والمؤسسات الاجتماعية. كما أن الثقافة تلعب دور الوسيط بين الفرد والمجتمع، إذ تمكّن الفرد من استيعاب القواعد الاجتماعية والتكيّف معها.

ثانياً: التطور التاريخي لمفهوم الثقافة

1. الثقافة في الفكر الكلاسيكي

في الفكر الغربي الكلاسيكي، ارتبط مفهوم الثقافة في بداياته بمعاني التهذيب والرقي العقلي والفني، كما هو الحال عند فلاسفة عصر الأنوار، حيث كانت الثقافة تُقابل بالطبيعة، وتُعبّر عن ارتقاء الإنسان من الحالة الطبيعية إلى الحالة الحضارية.

أما في القرن التاسع عشر، فقد شهد مفهوم الثقافة تحوّلًا جذريًا مع تطور الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، فقد انتقل من معنى النخبوية والرقي إلى معنى شامل يضمّ كل أنماط الحياة الإنسانية، بما في ذلك الممارسات اليومية والعادات الشعبية، حيث برزت محاولات لفهم الثقافة كـ **نسق متكامل من الرموز والعادات** يميز كل مجتمع عن الآخر، فقاد **إدوارد تايلور** الاتجاه التطوري الذي يرى الثقافة متدرجة من البسيط إلى المعقد، بينما ركّز **مالينوفسكي** و**رادكليف براون** على **الوظيفة الاجتماعية** للعناصر الثقافية.

وقد أسهمت جهود الأنثروبولوجيين في نقل الثقافة من كونها "نتاجًا فكريًا" إلى كونها **نظامًا اجتماعيًا ووظيفيًا**، له بنية وأدوار محددة

2. الثقافة في السوسيولوجيا الكلاسيكية

اهتمّ روّاد السوسيولوجيا الكلاسيكية بالثقافة كلٌّ من زاويته الخاصة، فقد رأى **إميل دوركايم** أن الثقافة تتجسّد في «الوقائع الاجتماعية» التي تفرض نفسها على الأفراد وتمارس عليهم نوعًا من الإكراه، مثل القيم والمعايير الأخلاقية.

أما **ماكس فيبر**، فقد ركّز على البعد المعنوي والثقافي للفعل الاجتماعي، معتبراً أن فهم المجتمع يقتضي فهم المعاني التي يضفيها الأفراد على أفعالهم، وهو ما يظهر جليًا في تحليله للأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بنشأة الرأسمالية.

في حين ربط **كارل ماركس** الثقافة بالبنية الاقتصادية، واعتبرها جزءًا من البناء الفوقي الذي يعكس علاقات الإنتاج السائدة، مع التأكيد على دورها في تكريس الهيمنة الأيديولوجية للطبقة المسيطرة.

أي أن الثقافة في هذه المرحلة كانت **مرتبطة بالمجتمع والاقتصاد والدين**، ولم تكن بعد موضوعًا مستقلاً تمامًا.

3. الثقافة في السوسيولوجيا المعاصرة

في السوسيولوجيا المعاصرة، توسّع مفهوم الثقافة ليشمل قضايا الهوية، والتمثّلات، والرموز، والإعلام، والثقافة الشعبية. وبرزت اتجاهات مثل السوسيولوجيا الثقافية والدراسات الثقافية التي تنظر إلى الثقافة بوصفها مجالًا للصراع والتفاوض حول المعنى والسلطة، فبدأت الثقافة تُفهم كـ **بنية رمزية وصراع اجتماعي** في آنٍ واحد. وقدّم **كليفورد غيرتز** تصورًا تفسيريًا يجعل الثقافة شبكة معانٍ، أما **ريموند ويليامز** فربطها بالهيمنة الطبقية والمقاومة الشعبية. وأخيرًا، **بورديو** نظر إليها كـ **أداة لإعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي** عبر الرموز والذوق والتعليم.

وهكذا أصبحت الثقافة في الفكر المعاصر **حقلًا مستقلاً** يُدرس من منظور التأويل، القوة، والصراع.

ثالثاً: علاقة الثقافة بالمجتمع

تقوم العلاقة بين الثقافة والمجتمع على التفاعل والتأثير المتبادل، فلا وجود لمجتمع بلا ثقافة، ولا يمكن تصور ثقافة خارج إطار اجتماعي. فالمجتمع يُنتج ثقافته عبر التفاعل الاجتماعي، بينما تسهم الثقافة في إعادة إنتاج المجتمع وضبط استمراره.

من جهة، تعمل الثقافة على توحيد أفراد المجتمع من خلال منظومة مشتركة من القيم والمعايير، مما يعزّز التماسك الاجتماعي والشعور بالانتماء. ومن جهة أخرى، قد تكون الثقافة مجالًا للاختلاف والصراع، خاصة في المجتمعات المتعددة ثقافيًا، حيث تتعايش أنماط ثقافية مختلفة داخل النسق الاجتماعي الواحد.

كما تلعب الثقافة دورًا أساسيًا في عملية التنشئة الاجتماعية، إذ من خلالها يتعلّم الفرد أدواره الاجتماعية ويتشرّب القيم والمعايير السائدة، مما يضمن استمرارية المجتمع عبر الأجيال.

رابعاً: خصائص الثقافة

تتميّز الثقافة بعدد من الخصائص الأساسية، من أبرزها:

- **الاكتساب والتعلم:** فالثقافة ليست فطرية، بل يكتسبها الفرد من خلال التفاعل الاجتماعي والتنشئة.
- **الطابع الانساني والاجتماعي** :الثقافة ظاهرة جماعية يشترك فيها أفراد المجتمع، وهي إنسانية خالصة.
- **الاستمرارية والتراكمية:** تنتقل الثقافة من جيل إلى آخر عبر آليات التنشئة والتقليد.
- **التعقيد:** نظرا لكونها نتاج تراكم مستمر للابداع الانساني عبر العصور.
- **النمو والتغير** :رغم طابعها المستمر، تبقى الثقافة قابلة للتغير والتطور بتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية، وتتفاوت وتيرة التغير في المجتمعات.
- **التكامل** :تتسم عناصر الثقافة بالترابط والتكامل، بحيث يؤثر أي تغيير في أحد عناصرها على باقي العناصر.
- **الرمزية** :تعتمد الثقافة على الرموز، وعلى رأسها اللغة، في التعبير عن المعاني والقيم.

خامساً: وظائف الثقافة

تؤدي الثقافة داخل المجتمع جملة من الوظائف الأساسية، من أهمها:

1. **وظيفة الضبط الاجتماعي** :من خلال القيم والمعايير التي تنظّم سلوك الأفراد وتحدّد المقبول والمرفوض اجتماعيًا.
2. **وظيفة تحقيق التماسك الاجتماعي** :إذ تسهم الثقافة في توحيد الأفراد حول مرجعيات وقيم مشتركة.
3. **وظيفة إضفاء المعنى** :تمنح الثقافة معنى للأفعال والسلوكيات، وتساعد الأفراد على تفسير العالم من حولهم.
4. **وظيفة التنشئة الاجتماعية** :تعمل الثقافة على إعداد الأفراد للاندماج في المجتمع عبر نقل الخبرات والمعارف.
5. **وظيفة التكيف** :تمكّن الثقافة المجتمع من التكيّف مع محيطه الطبيعي والاجتماعي من خلال الابتكار وتطوير أنماط العيش.

خلاصة المحاضرة

نخلص إلى أن الثقافة تمثّل محورًا أساسيًا في التحليل السوسيولوجي، باعتبارها الإطار الذي تنتظم داخله الحياة الاجتماعية بكل أبعادها، فهي نتاج اجتماعي من جهة، وأداة لإعادة إنتاج المجتمع من جهة أخرى، كما أن تطور مفهوم الثقافة تاريخيًا يعكس تطور الاهتمام العلمي بالإنسان بوصفه كائنًا اجتماعيًا رمزيًا، ومن ثمّ، فإن فهم الثقافة يُعدّ مدخلًا لا غنى عنه لفهم المجتمع وتحليل تحوّلاته واستشراف آفاق تطوره.